مذكرات سفر / سبتمبر ٨٢ ــ فبراير ٨٣

الموضوع العام : القطيعة
اخراج خاص بـ: الهجرة
المكان : فرنسا
المعنيون : المغاربة (المغرب العربي)
الاوصاف : عاطلين ، وسخين ، لا يشبهوننا ، عرب ، كسالى ، أميين ، صعاليك ، حشاشين ، "زونار" ، "زومبي" ، فقراء ، مخضرمين ، عمال ، لونهم أسمر ، "بونيول" ، "بيكو" ، "بور" ، "راتون" ...

ما علاقتي بهم ؟
ما علاقتي بالهجرة؟
ما علاقتي بالقطيعة؟..... شيئا يثير انتباهي!
هيا بنا ...

نوفمبر ٨٢

لقيتها بنادى الفتيات ، فأخذتني الى غرفتها مع صديقة لها .
سجالتي فوق كتفي .
"لا مانع لدى في أن أتكلم ، لكن الامر يتعلق بالهدف من ذلك ... لان كثيرا من السوء يقال عنا !"
دخلت الموضوع بشكل مباشر من خلال قصة قطيعتها
مع والديها : انها هرّابة ...
مع تربيتها : الثانوية والمنزل ...
مع ثقافتها : انها عربية ، وتصوم رمضان . انها لم تعد تقبل بالزواج وفقا للطقوس التقليدية . تريد أن تشتغل . انها لم تعد تقبل بسلطة أخيها ...

تتحدثان عن حريتهما التي تريدان الحصول عليها .

نوفمبر... لاحقا

كتبت مؤخرا، قصة شابة مثلها، وهي كاتبة مسموعة. سألتها: ماذا تعرفين؟ ماذا تقولين؟ لماذا هذه القطيعة؟ وخاصة، أي قطيعة؟ لم تقل لي عن ذلك شيئا. تحدثت عن كتابها، وبطلته، أصبح ذلك مخدرها... لكي تنسى من أين أتت؟

لكي تدفن ألمها (انكسارها؟)

لكي تقنع أو تغلف أو تتنكر للحاضر؟

لكي تتحدث عن نفسها بعد نجاحها؟

لم أتعلم شيئا أكثر مما في كتابها.

نوفمبر... لاحقا أكثر

أذهب الى مرسيليا... لدى ذكرى حارقة عن عودتي من الجزائر سنة ١٩٧٣: كسائحة عائدة الى بلدي، شاهدت الجزائريين وراء الشباك، يعاملهم رجال الجمرك والشرطة معاملة سيئة، يشتمونهم، يفرضون عليهم ملء أوراق لا يعرفون قراءتها ولا كتابتها.

من هذا الميناء ألج الى أصول الهجرة...

زرت الميناء يوم أحد... انتبهت الى أن ذلك الوصول لم يبق، بل هناك ذهاب مستمر، انطلاقا من "مارينيان"، المطار المجاور.

ذهبت يوم الاثنين الى الحي العربي، بدون اتجاه محدد. كانت الحياة الصباحية في طور الانتظام. بائعوا السلع يخرجون سلعهم من ساعات وجواهر براقة. الاكشاك مفتوحة. المقاهي مليئة: مقاهي عربية، يملكها عرب، وزبناؤها معتادون. تناولت كأسا. هذه الحياة التي تمر أمامي، على الرصيف، تبهرني. أنتبه.

امرأة تشرب كأس "ليمونادا" مع ابنها. تخيفهم السجالة المقفولة الموضوعة بجنبي.

الرجال الذين يدخلون أو يخرجون، تثير اهتمامهم السجالة أيضا.

تبادلنا كلمتين أو ثلاثة... "تجرّأت" على الدخول.

صاحب المقهى يرفض.

الرجال القاعدون هنا يعبرون عن رفضهم الواحد بعد الاخر.

واحد منهم فقط يقول: "ماذا تريدين أن أقول لك؟ اننا كلنا عاطلون".

ان الكلام لا يمكن تبادله هكذا، بهذا الشكل.

مرسيليا. اقامة تقررت.

قدموه الي. انه فنان موسيقي. تحدثنا بدون سجالة.

انه مهاجر غريب: يتحدث عن أغاني "البوب" و"الروك"، وعن "الهيبي" والموسيقى التقليدية. انه عاش في فرنسا ثم الجزائر، وفي الجزائر ثم فرنسا. موسيقاه تدعو الى التصالح. انه في قطيعة مع الجميع: الشباب يفضلون الطريقة العصرية، والمسنون لا يريدون سوى التقليدي. انه يجرى بحثه الخاص، من خلال سفره الخاص، بين حياتين وثقافتين.

وجدته ممزقا.

أنصت لكل شيء.

"هناك من يقول أنه يمكن كسب الدراهم في البلدان المصنعة...

الحقيقة أن ذلك أمر صعب.

الا أن الناس تستحيي العودة بكفي حنين"

"يجب التوفيق بين المتناقضات".

قطيعة؟

ضياع ثقافته؟

لقاء جديد مع جذوره؟

ابتكار، ألم، ميلاد شيء آخر؟

آه!

هل توجد فعلا، الاجناس؟

مرسيليا. في مكان آخر.

يعيشون في حي بضواحي مرسيليا.

أصعد سلم العمارة الوسخة، حيث لا توجد انارة داخل المصعد، والسلم مليء بالكتابات. الفضلات في كل مكان: وأخيرا، ها نحن في الاحياء السيئة. تلك التي تخاف منها المدينة.

هنا مات زهير، بعد أن أطلق عليه الرصاص من أعلى احدى العمارات.

أخذوني الى الحي، والمساحة الفارغة حيث يجترون أسئلتهم منذ وفاة زهير، منذ الوقت الذى لم يعودوا يلعبون فيه بالسيارات التي يستعيرونها مدة ليلة، منذ أن بدأت الشرطة تتجول في الحي كله، منذ أن أصبحوا يصطفون أمام متاجر مرسيليا، فيرفضون كخدام، بطريقة أقل أو أكثر أدبا.

"ان السجن لعبة.. وهو أفضل من البطالة".

"الرغبة في الحياة...

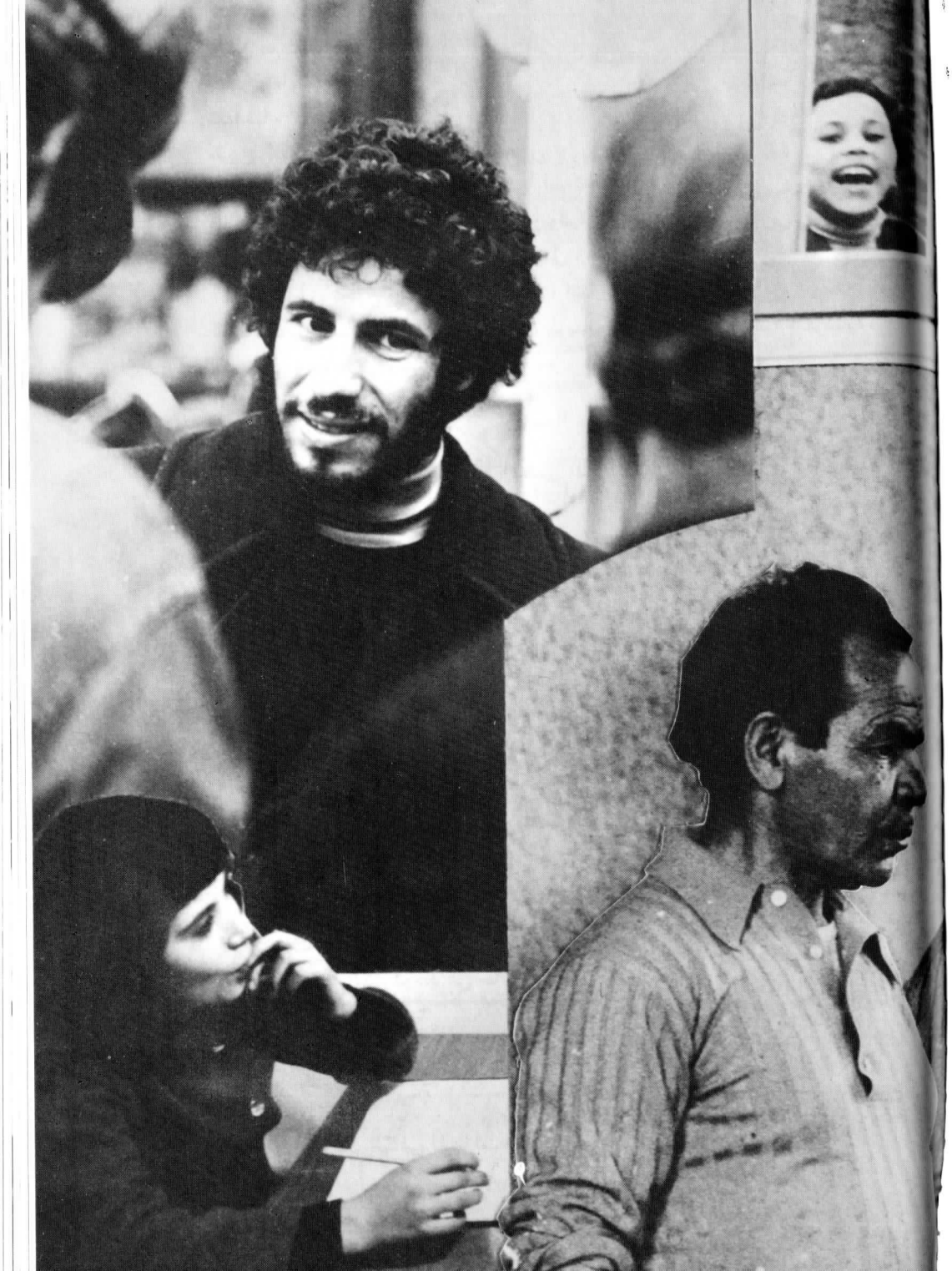

"المرأة هي الحياة...
"اذا ما تزوجت، سأبقى مع والدتي. الجيران يمزحون.
"ليس الامر كذلك بالنسبة لاخواني...
"الزواج؟ القميص؟ الرجال في جانب، والنساء في جانب آخر: انها بلاهة.
"انني لا أتحدث مع والدي في شيء.
"تتصور نفسك في الجزائر، لكنك في مرسيليا".
"يجب الكف عن اللهو الان. ينبغي التفكير...

مرسيليا. ينبغي التفكير.

السندباد يصل أبواب المدينة.
ماذا؟ ألا تعرفين من هو السيد هنا؟

عدت الى حال سبيلي.
تحت تبرير ضرورة ترك الكلمة للاخرين، لم أتقدم أكثر من هذا.
مكثت في المحيط، في الناحية.
أحافظ على نفسي من العالم الخارجي، من هذه الفوارق.
لم أكل لحد الان كسكسا واحدا.
رفضت السفر.
التجأت الى القيام بدوري فقط داخل المعرض.

باريس. في الشارع.

عدت الى الشارع: سوق "أليغر"، أصحابه "بورقيبيون" فخورين بما يروونه،
فخورين بكونهم عرب
فخورين بشارعهم
فخورين بسوقهم
فخورين
أكلت اجاصة جيدة جدا... أهديت لي مقابل أمل غامض في الظهور على شاشة التلفزة، أو التكلم في الراديو.

نانتير. دقت الساعة.

يشتغلن في الخياطة.
كلهن جزائريات.

يعشن مع عائلاتهن.
أسسن تعاونية.
تحدثنا.
كلهن "فخورات" بكونهن عربيات.
قالت "لست أدرى لماذا تفخرن بشيء لم تخترنه"
قالت فتاة مارة: "أنا فخورة بكوني بروتونية".
"في البداية لم يكن أبي يقبل أن أشتغل...
"لا يمكننا أن نخرج من البيت كما نشاء، اننا...
"ازددت بفرنسا سنة ١٩٦٣. والدىّ يريدان أن أحمل الجنسية الفرنسية.
لكن، لي وجه عربي، وسأظل عربية...
"الاغتيالات، التقتيل...
"انهم يعيشون في عزلة...
"كلما رآها أخوها، يقول لها: اذهبي الى المنزل! انهم يقلدون أباهم، كما أن البنت تقلد أمها.
"هناك أشياء يضيفونها، وهي ليست مكتوبة أصلا في القرآن...
"يجب على المرء أن يكون نظيفا قبل الصلاة...
"الكل يطالب بالحرية...
"عار أن لا تكون البنت عازب قبل الزواج... انها التقاليد... لكن الامور تغيّرت الان...
"والدىّ؟ انهما لا يعرفان القراءة...
"مخرج النجاة هو القفز من النافذة...
تردن أن تحكين كل شيء
تردن التحدث عن كل شيء
تتزاحمن كلهن في آن واحد.
"يجب أن نختار المكان الذى نريد أن نسكن فيه"...
فتحت ثغرة في هذه الشقة التابعة لهذا المركز الاجتماعي، دون شعور.
ان هذه الكلمة التي توجد في حالة غليان، كلمة عنيفة
يجب أن نلتقي مرة أخرى.
الصمت كلمة تحضر نفسها
أتابع.
آخذ الان الوقت الكافي للقاءات.
كلمات...

لغات...
مسافات
طرق
قطع مسافات بدون حجة ولا دليل
في الاستماع
تخيفني الفوارق
تثيرني الاسرار
عنف مغلق عليه...

قال لي "هل هو ناقوس خطر تريدين دقه؟
هل ستقولين أننا نفقد ثقافتنا؟
هؤلاء العاملين في مناجم الشمال
هؤلاء العاملات في الخياطة
هؤلاء الذين يجمعون الازبال فجر كل يوم،
النساء اللواتي اجتمعن في غرونوبل أو باريس؟
أولائك الذين يريدون أن أذهب معهم لكي يسجلوا هم بأنفسهم ما يحدث في حيّهم.
أولئك الذين يحضرون سفرهم المدرسي الى الجزائر ويقررون تسجيل نقاشهم الذى يسيّره الاطفال العرب؟
"هذه هي الحروف الابجدية؟... لماذا تكتب بشكل مقلوب؟"
انهم كلهم يريدون أن يتكلموا
"ما كنت لاذهب للاشتغال في المعمل منذ عشر سنوات، لو كان ذلك لاجل الشغل فقط. انني أناضل كثيرا".

أما هذا الرجل المتقاعد من الجيش الفرنسي، والذى ترك ابنته الكبرى وهي صبية بالجزائر، ولم يراها ثانية، وله الان ثمانية أطفال، فانه لا يريد أن يتكلم.

انني لن أسمح لنفسي باستعمال شريطي المسجل لانتهاك حرمة أحيائهم، وشوارعهم، وحفلاتهم...

جميلة (السنة الرابعة، ثانوية ألبير كامي، مرسيليا) تغني:

"بلدى الدائم يوجد هناك
وبلدى اليومي يوجد هنا"

باريس في ٣ يناير ١٩٨٣
مارا لابورت